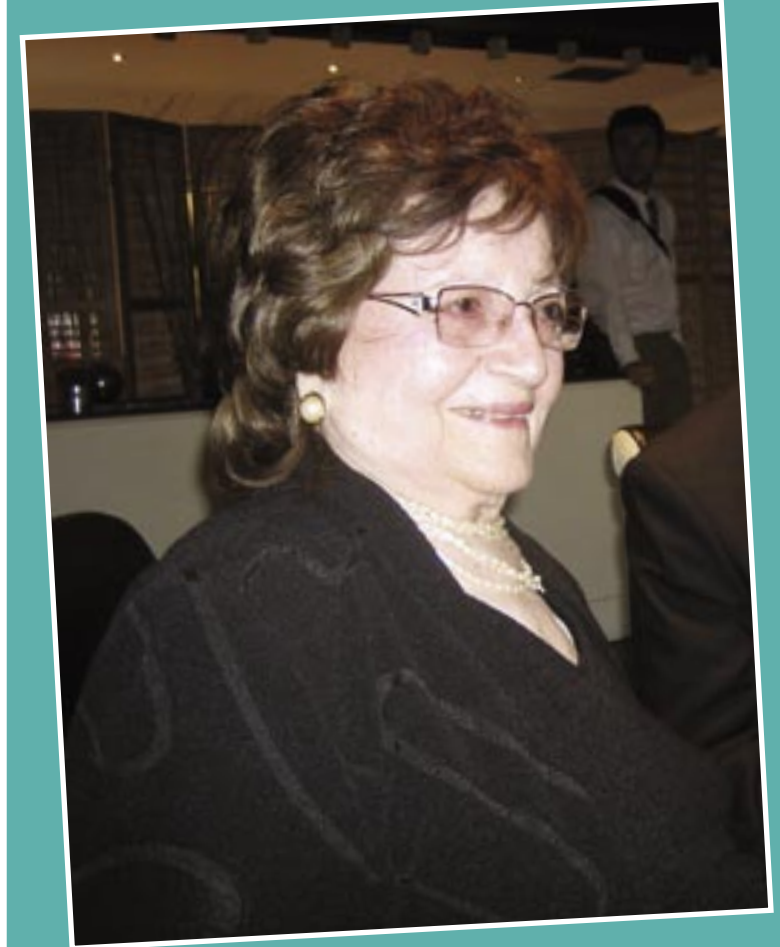


## ذكريات طبية عاصرت مرحلة تحول المرأة العراقية

# سانحة امين زكي .. اول طبيبة مسلمة

نون- لندن



كنت اتصفح «ذكريات طبيبة عراقية» للدكتورة سانحة امين زكي التي اصدرتها دار الحكمة بلندن في كتاب من (٨٥٠) صفحة، حينها قررت ان التقيها، فالتفاصيل الدقيقة التي يوردها الكتاب تشير الى ذاكرة عجيبة لسيدة عراقية طبية وادبية تجاوزت التسعين من عمرها، فما ان تبدأ بقراءة هذا الكتاب لا يمكنك ان تتركه حتى تنهيه لما فيه من متعة ومعلومات اجتماعية وسياسية وتاريخية، توثق لمرحلة من تاريخ العراق في العشرينات والثلاثينيات، حيث بداية خروج المرأة للدراسة الجامعية والعمل مع تباشير تحررها، وهي في كتابها تعطينا وصفا دقيقا وظريفا للبيوت التقليدية والعادات العراقية ووسائل السفر والنقل ومدارس البنات في أول نشوئها، ولا يفوتها شيء مما يحمل روح السخرية والطرافة والدلالة العميقة. اما اللقاء مع د. سانحة فيحمل اكثر متعة وهي تحدثنا عن بداية دخولها الكلية وتفاصيل حياتها انذاك.

(نون)- حدثنا عن سانحة امين زكي اول طبيبة مسلمة في العراق وكيف كنت ترين وضع النساء العراقيات انذاك؟

- قدمت طالبا الى الكلية الطبية الملكية في صيف ١٩٣٦ عندما تخرجت من الثانوية المركزية وعمري ستة عشر عاما، كانت دورتنا الثانية التي تتخرج من الثانوية اذ سبقتنا دورة واحدة في الفرع العلمي ولأن عددنا كان قليلا لا يسمح بتفريقه الى صفين، اختارت المديرية (امة السعيد) ان يكون صفنا للفرع الادبي فقط.

لم اكن اول طالبة تدخل الكلية الطبية اذ سبقتنني اليها اربع طالبات هن "ملك غنام" اول طالبة والوحيدة التي دخلت الكلية انذاك وكانت في الصف الرابع حين دخلت انا الكلية، و"حبيبة بيثون" من الموصل في الصف الثالث وكانتا قد تخرجتا من ثانوية في بيروت. وفي الصف الثاني

والذي كان يخطط لذلك حيث شجعتني في الثانوية على دراسة اللغة الالمانية التي كانت دراستها اختيارية الى جانب الانكليزية اللغة الاساسية في المنهج الدراسي للفرع الادبي. لم أعارض والذي في موضوع الدراسة لانه كان الوحيد الذي يؤازرنني في دراستي الجامعية وطموحي في السفر الى المانيا، لذا وافقت على دراسة الطب في برلين. في تلك الاثناء انتقل زوج اختي الى سويسرا وكان على وشك الرجوع الى بغداد، لذا قدمت طالبا للدخول الى الكلية الطبية الملكية في بغداد وقبلت، رغم كوني من خريجات الفرع الادبي وفي سن السادسة عشر ونصف وعمر الدخول القانونية

كانت هناك طالبتان تخرجتا من الثانوية المركزية في بغداد من الدورة الاولى في الفرع العلمي وهما "روز موشكة" و"روز اللوس". والطالبات الاربعة اللواتي سبقنني في الكلية كن مسيحيات.

بعد ان تخرجت من الثانوية اخبرت ابي برغبتي في دراسة التاريخ والأدب لكنه ابتسم وقال: العلم هو الحقيقة الثابتة ويحتاج الى الدراسة الاصلية، وذلك لن يمنحك من قراءة التاريخ والادب كما تشائين في المستقبل، اما الان فسوف ارسلك الى المانيا لدراسة الطب، حيث كانت اختي الكبرى بتول مقيمة مع زوجها صبيح نجيب العزي الذي كان وزيرا مفوضا في المانيا، ويبدو ان

# تدخل الكلية الطبية الملكية العراقية

الاوربية ويشاهد النساء في الغرب. سافر الى اوربيا ورأى النساء في فيينا وبرلين وباريس ولندن وأعجب بما شاهد. بدأ يشعر ان المرأة يجب ان تتخلص من الاتكال على الزوج وان تبني الحياة الزوجية على الالفة والود بين الزوجين.

اما عن علاقته معنا في البيت استطيع ان اقسام انه لم يتفوه بكلمة خشنة واحدة امام والدتي او امامنا نحن البنات، في احيان قليلة كان يغضب على الاولاد فقط.

فرح والسدي بنجاحي في المدرسة واهتمامي الكبير بالعالم الخارجي اثناء دراستي في المدرسة الثانوية، وساعدني على الدراسة العالية بعزم، لم يسأل اخوته عن دخولي في كلية الطب المختلطة، او يطلب منهم الموافقة على ذلك بل ازرتني بهدوء.

بعد اربعة سنوات وافق عمي الاكبر ادخال ابنته الى دار المعلمين العالية وهي كلية مختلطة ايضا للذكور والاناث.

تعلمت الكثير من والسدي في العلم والثقافة والسياسة، وفي الحرب العالمية الثانية كان يطلعنا على مايدور في اوربيا وشمال افريقيا من حروب.

ولازلت اشعر الى الان سعادته واعتزازه

حين تم قبولي في الكلية الطبية، ويوم حصولي على جوائز في حفلة تخرج الاطباء سنة ١٩٤٢، وكذلك اختياري من قبل الحكومة للذهاب الى مصر في الاجتماع النسوي الاول في القاهرة سنة ١٩٤٤ مع جماعة من السيدات العراقيات، بعدها حصولي على البعثة للدراسة العليا في لندن سنة ١٩٤٦ لمدة سنتين ومن ثم اختياري للذهاب الى امريكا لمدة اربعة اشهر سنة ١٩٥١، وفي كل مرة كان يشعر بأنه كان على حق وان النساء يملكن نفس العقول كالرجال.

(نون) - في العائلة كانت هناك شخصيات نادت بتحرر المرأة مثل حسين الرحال، هل كان له تاثير على سير حياتك؟  
حسين الرحال ابن خالتي وكان أكبر من امي. كنت في سن التاسعة حين أخبرتني اخته

بالامر جدا وشكرنا على اهتمامنا بالامور العربية ولكنه (عمو صبيح) لم يظهر بانني قرييته ابدأ بل عاملني مثلما عامل الطلاب الاخرين.

خرجت مرة ثانية الى الشارع مع الطالبات والطلاب لتأييد الجيش اثناء حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١، لشعورنا الوطني اتجاه بلادنا.

(نون) - في مجتمع مغلق محافظ يومذاك كيف استطعت كسر الحواجز والخروج للدراسة والعمل وهل ارتديت العباءة او غطاء الوجه "البوشي"؟

- قبيل سن الثالثة عشر طلب مني والسدي ان البس العباءة لانها العادة انذاك. وكنا نسكن في شارع الفضل في وسط بغداد القديمة، اضطررت لارتداء العباءة، لاننا لا نعارض ما يقول الوالد وطلباته كانت قليلة جدا. فهو يترك كل شي للوالدة، بعد سنتين ارتدت اختي لمعان العباءة وكانت تصغرني بسنتين فقط.

لكن الامور كانت تسير بسرعة نحو التمدن الغربي ولذلك فأني اختي الثالثة عادية وهي تصغر لمعان باربعة سنوات لم تلبس العباءة ابدأ.

اما عن كسر الحواجز للدراسة والعمل يجب ان اعترف بأنني لم اشعر بكسر اي حاجز بسبب وقوف والسدي بجانبني وكنت اشعر بانني قوية واشفق في فؤادي على النساء.

انها الحرية التي اعطيت لنا اثناء الطفولة، مساواة مع الاولاد في كل شي، والسدي كان يعتقد ان والدته لاتقل عن والده في تفكيرها وحكمتها وكان حبه لها كبيرا جدا.

(نون) - ما السر في اصرار الوالد على تعليم بناته على الرغم من انه كان من خلفية عسكرية في الجيش العثماني؟

درس والسدي العسكرية في استانبول وكانت هذه المدينة اقصى ما يصل له المرء من العلم والثقافة. كان يقرأ المجلات

كانت ثمانية عشر عاما. في ذلك الوقت كانت العادات والتقاليد القديمة بدأت تزول بتدريج سريع خاصة بعد تخرج معلمات عراقيات من دار المعلمات الابتدائية والتغيير الكبير الذي طرأ عليهن في طريقة الكلام اللطيفة الحازمة وزوال الحاجة المادية الى الاهل وكذلك وصول المعلمات من سوريا الى العراق لتعليم البنات وانتشار مدارس البنات في مختلف المدن العراقية الكبيرة أثر على طريقة تفكير الناس كثيرا، لكن السفور والاختلاط مع الجنس الاخر كان من المحرمات.

(نون) - هل اشتركت بنشاطات نسوية يوم كنت طالبة او حتى بعد التخرج والعمل؟

- لم اشترك بنشاطات نسوية ايام الدراسة، لكن كانت هناك جمعية الهلال الاحمر الضرع النسوي فيها سيدات من عائلات معروفة وزوجات بعض الوزراء اشتركت معهن في العطلة الصيفية مع جماعة (الاحداث) وتعلمت العناية بالطفل الحديث الولادة من ممرضات بريطانيات واتقنت ما تعلمت بالعناية بأخي الصغير الذي ولد في ذلك الوقت، وكان ذلك مصدر راحة لوالدتي.

الاشتراف بالمظاهرات للمرة الاولى

وتقول د. سانحة: اتذكر وانا طالبة في الصف الاول في كلية الطب خرجت بمظاهرة مع طالبتين ومجموعة من طلاب الصفوف العليا في الكلية حول قضية القبض على ثوار من فلسطين، والمفارقة التي حصلت معي انني خرجت دون ان اضع العباءة على راسي مع انني كنت اضعها خارج الكلية، توجهننا الى وزارة الخارجية التي كانت على مقربة من كلية الطب وهناك قابلنا مدير الخارجية العام وكان في ذلك الوقت (السيد صبيح نجيب العزي) زوج اختي الكبرى (بتول) وهو ابن خال والسدي، واستقبلنا احسن استقبال وأكد بأن الحكومة مهتمة

اما امينة اخته الصغرى فقد استغنت عن لبس الحجاب سنة ١٩٣١ ولبست الباطو الطويل في الطريق مع قبعة واشترت سيارة كانت تقودها في شوارع بغداد.

ولكن بالنسبة لي شخصيا كان تأثير الوالد والوالدة اكبر من خلال طريقة اهتمامهم بالبنات والاولاد بصورة متساوية في البيت ولم تشعر ان حسين الرحال أثر علينا تأثيرا خاصا ابدا.

**(نون) - ماذا عن مذكرات طبية الذي لاقى نجاحا في السوق العربية؟**

منذ زمن بعيد كنت افكر في ايام حياتي الماضية واحمل ذكريات الطفولة الاولى في ذاكرتي وكأنها حدثت قبل فترة قصيرة من الزمن، خصوصا وانها تحمل الكثير من المتغيرات، اهمها

تقدم المرأة خلال جيل واحد من جاهلة تحتاج الى رجل ليقوم أودها مع اطفالها الى نساء متعلمات يقمن بتعليم الطلاب وطبيبات عصريات ماهرات وصيدلانيات وخريجات كلية الحقوق وشاعرات كل هذا حدث في جزء من القرن العشرين لم يتجاوز أربعين سنة، وهي مرحلة انتقالية تستحق التوثيق، ولحسن الحظ لاقى الكتاب النجاح في البلاد العربية .

**(نون) - ماهو تقييمك للمرأة العراقية اليوم وكيف ترون مستقبلها؟**

. تركت العراق سنة ١٩٧٢ وكنت اقوم بزيارة بغداد سنويا لرؤية الاهل والاصدقاء واشتاق جدا لهذه الزيارة.

بعد دخول الامريكان الى بغداد وتضرق الجيش والشرطة وانعدام الامن بين الناس وتصاعد الطائفية والاقتيال واختطاف المواطنين في الشوارع، اشعر بأن هذا البلد هو غير العراق الذي تربيت ونشأت وتعلمت فيه.

ففي ايامنا الماضية كنا نكتب مقالات عن النساء وحقوقهن وواجباتهن وكنت اكتب بعض المقالات الطبية للام والطفل، وكنا نساغر ونشترك في اجتماعات في مصر او بيروت حول قضايا المرأة، وانتميت الى جمعيات ونوادي كثيرة في بغداد، لذا حزنت كثيرا لما آل اليه وضع البلد ونسائه، اما الان فيبدو ان الوضع قد استقر قليلا، واثلج صدري قراءة اسماء نساء في مختلف المدن العراقية في بغداد وفي الجنوب وفي الشمال نساء مسئولات عن وظائف يكتبن في مجلتكم ”نون“ عما يحدث في محافظاتهم،

ولاخواتها بعض الكتب الغربية المترجمة الى العربية وكتبا تركية لقراءتها سرا، لانها ممنوعة عن البنات في ذلك الوقت من قبل اخوتهن الكبار حيث كانت قراءة الروايات تعتبر (عيبا).

ولهذا السبب لم تمنع والدتي عنا قراءة الروايات ابداً، وهذا ما اشكرها عليه كثيرا.

كانت لحسين الرحال وجماعته في اوائل سنوات العشرينات في القرن العشرين تأثيرا كبيرا على المجتمع في المطالبة بفتح المدارس للبنات.. فتعلمت الطالبات بسرعة عن تأثير العلم وعن الحرية الاقتصادية لكسب العيش دون الاعتماد على الرجل وبذلك ظهرت للنساء شخصيات جديدة قوية ما كن يحلمن على اكتسابها من دون العلم الجديد.



أصبحت النساء يهتفن علينا في الاجتماعات وفي الجرائد والمجلات بقابليات النساء على العلم والادب والفنون مثل الرجال، وهكذا كانت الفائدة عامة من حسين وجماعته على النساء جميعا من دون شك.

كان تأثير حسين كبيرا على افراد العائلة وخاصة النساء. لا اقول انه غير مناهج حياتهم لكنه غير تفكيرهم القديم. وكان تأثيره على عائلته كبيرا، فاخته الكبرى سنية قصت شعرها في استامبول وعادت الى بغداد بشعر قصير وكانت هي الاولى في بغداد التي تجرأت على ذلك وهي في السادسة عشر من العمر وعلى الرغم من انها تلبس الحجاب التام في الطريق، الا ان الاقارب والاصديقات استنكروا عملها هذا.

الكبرى بأن حسين يكتب منذ سنوات عن حقوق النساء في بعض المجالات وانه يدعو الى معاملة البنات اسوة بالاولاد ويكون لهم الحق في الدراسة وتعلم السباحة وركوب الدراجات الهوائية والانتماء للكشافة، وانا التي احب كل هذه الاشياء محرومة منها لكوني فتاة.

في سنة ١٩١٨ سافر حسين الى المانيا وشاهد الكثير من المظاهرات تعم البلاد ويظهر انه تأثر جدا بما شاهد ودخلت الافكار اليسارية في ذهنه منذ ذلك الوقت والى نهاية حياته. فقد تكلم بالشيوعية ولكنه لم ينتمي الى الحزب ابدا. وحين رجع الى بغداد كان قد ازال شاربه تماما ويمشي دون ان يرتدي طربوشا على رأسه، وهي اشياء لا يقوم بها احد مطلقا في بغداد في العشرينيات.

كتب حسين الرحال مع جماعة قليلة منهم رفائيل بطي وسامي شوكت وغيرهم عن حقوق المرأة الاجتماعية وان الدين الاسلامي لا يتعارض وحقوق النساء وذلك ما أثار اكرهية الناس ورجال الدين وقد كتبوا الكثير حول استنكار السفور في الجرائد ولحسن الحظ لم يحدث معهم ما حدث للشاعر الزهاوي عندما اضطر الوالي اثناء العهد العثماني من فصله من وظيفته لكي يهدأ الناس. وافق الرجال على تعليم البنات ولكن لم يخطر على بالهم سفور المرأة.

تعرفت على حسين الرحال عن كتب وانا في السنة الاخيرة في الثانوية المركزية، بعد ان توفي الشاعر جميل صدقي الزهاوي وطلبت منا مدرسة الادب ان نشترك بكلمات نلقياها في يوم تأبينه.

وكانت معلوماتي عنه قليلة جدا، لذا لجأت الى حسين الذي كان يملئ علي اخبار الزهاوي دون ان ينظر الى اي كتاب اذ كانت التفاصيل كلها معروفة لديه وهو يفيض في مديحه لجرأته واحترامه الشديد للمرأة منذ العهد العثماني.

بعد الانتهاء من حفلة ذكرى الزهاوي بدأت اشعر ان حسين مدرسة بكاملها استطاع ان اتعلم منه الكثير. واخذت اثناء زيارتنا الى خالتي اسأله بعض المعلومات. واحيانا اناقشه عليها، اصر حسين بأن المرأة يجب أن تتحرر اقتصاديا عن الرجل للخروج من ريقة الاستعباد التي يملكها الرجل. وكان في صباه يجلب لوالدتي



بغداد وهي طفلة، ثم اقتربت مني حين درست في لندن وتخرجت مهندسة معمارية بامتياز واشتغلت مع مهندسين معماريين في لندن.

كان العراق يجتاز ظروفًا صعبة جدًا، وهنا دخلت ميسون عالم السياسة. ولابد ان أعترف انني خفت على ميسون الشابة التي تسكن وتشتغل بنجاح تام في لندن بلد القانون والحرية وأنا اراها تغلق شقتها اللطيفة ومكتبها الخاص كمهندسة معمارية وتذهب الى بغداد في تلك الظروف الحرجة دون ان يغمض لها جفن. ثم تحول خوفي عليها الى اعجاب شديد بما تملك من شجاعة وحب لبلادها.

بت اسأل نفسي هل كنت سأصنع ما صنعت ميسون لو كنت في سنها؟ الاجابة صعبة جدا وليس الكلام مثل الفعل.

لقد قررت ميسون العمل في بلادها وقامت بذلك دون ان تسأل رأي احد، لم اشعر الا وانا احببها على البعد واتمنى لها النجاح في كل اعمالها واصبحت في نظري كقدوة للنساء في العراق، ليس لانها ابنة اختي، فعندي الكثير من بنات وابناء العائلة ممن احبهم كثيرا، لكن ميسون لعبت دورا خطيرا يفخر به كل شخص يحب العراق لكونها امرأة عراقية تركت ما كانت تعيش به من امان وراحة فكرية، وواجهت بلد يعيش الخطر كل يوم والقنابل تهدم ابنيته وتقتل ابناؤه في الشوارع.

كم منكم شاهد امرأة تعمل وتعيش حياة مريحة في بلاد الغرب، تترك كل ذلك وتأتي بنفسها الى الخطر، مليئة بالتفاؤل والود وتعمل نائبة في البرلمان، ثم تنشأ مجلة تديرها النساء من اجل نساء العراق.

ميسون ابنة اختي لمعان اقرب اخواتي الي سنا لانها تصغرني بعامين فقط، كنت اول واحدة تشاهد ميسون لحظة ولادتها في المستشفى الملكي وحملتها الى فراش امها كي تراها، وتفرح بها لعلمي برغبتها الشديدة ببنت وهي الام لولدين صغيرين.

ثم خرجت لأخبر والدها الدكتور سالم الدمولوجي وما ان راها حتى ابتسم ابتسامة عريضة وقال: ما اجملها، ووقع في حب وليدته منذ تلك اللحظة، واشترك معهم بحبها اخيها الاكبر سعد الذي يكبرها بعشرة سنوات.

اما لمعان فهي اقرب اخواتي الى نفسي كنا معا على الدوام نشترك في غرفة واحدة وندرس في نفس الكلية كانت تفهم ما اقول وتأخذ جانبي في جميع الاشياء. وهي هادئة الطبع رضية الخلق ولكنها تتمسك بما تريده بقوة. وبدأت منذ سنواتها الاولى في المدرسة تتفوق في دراستها وهي الاولى على صفها دائما، دخلت كلية الطب وكنا نذهب الى الكلية في الصباح ونعود الى البيت معا في وقت العصر.

كانت لمعان شديدة البياض ذات عيون زرقاء وشعر اشقر، وبسبب اعجاب والدتي بعيون ابنتها الزرقاء اطلقت عليها اسما اخر يستعمل داخل البيت فقط وهو (ماوي) والكلمة تركية تعني ازرق. اخذ الاهداء بهذا الاسم وبقينا نسميها ماوي في البيت ولمعان في المدرسة.

كانت شديدة التعلق باطفالها خصوصا ميسون لانها البنت الوحيدة وصغرى الاطفال ورثت ميسون عن والدتها ذكاء حادا واكتسبت شخصية قيادية قوية. رأيت القليل من ميسون وهي تكبر لانني تركت

وهذا دليل بأن نساء العراق في جميع المدن يلعبن دورا مهما في محيطهن وهو ما كنا نصبوا اليه في الماضي.

(نون) - حدثينا عن الكمبيوتر كم تقضين من الوقت معه وكيف تعلمته؟

- رأيت الكمبيوتر للمرة الاولى في لندن في السبعينيات من القرن الماضي وبدأ لي كجهاز غريب يثير الاهتمام وتعجبت من انه يشتغل بضربات من الاصابع لم افهمها. لم اجد فيه ما يشوقني ابدا ووطنته سيكون جهازا يستعمله البعض من الناس ممن يحب الاجهزة الحديثة ولم اعلم انه سيقتضي على القراءة والكتابة بالأساليب التي نشأنا عليها.

كان عمري حوالي سبعين سنة حين سافرت الى امريكا لزيارة اقربائي هناك ورأيت في بيتهم كومبيوترات عديدة للأب وللأم ولكل واحدة من البنات الثلاثة.

اثناء الحديث اشرت بأبني سوف اكتب بعض ذكرياتي عن بغداد. اخذ الاب مجدي الذي اعتبره مثل ولدي يزين لي سهولة العمل بهذا الجهاز اذا اردت تأليف الكتاب.

لم اقتنع كثيرا بسبب سني، ضحكت مع نفسي وشعرت ان التعليم الجديد قد فات اوانه، لكن مجدي اصر على تعليمي الاشياء الاولى وبدأت اشاهد الجهاز بعين أخرى، كنت على وشك العودة الى انكلترا حيث اسكن، لذا اسرعت باقتناء (لاب توب) الجهاز الذي احببته لصغر حجمه، ووضعته في حقيبة السفر التي احملها بيدي لثلا يقع شئ للجهاز اثناء السفر. ومنذ ذلك الوقت اصبح الكمبيوتر اهم حاجة لدي واصطحبه كلما اسافر.

والان حين اصبح السفر صعبا، وحتى الخروج من البيت في الايام الباردة متعذرا علي، صار الكمبيوتر يعيش معي وكأنه شخص اخر يشاركني البيت. انه مركز الاخبار لدي وهو البريد السريع مع الاقرباء والاحباب، والالة الطابعة الامينة التي تسجل وتحفظ ما اكتب، واسمع بواسطتها الخطب والمقالات والاغاني والاناشيد العراقية الشعبية والعربية والموسيقى الغربية على اشكالها.

(نون) - كيف تنظرين الى ميسون الدمولوجي اليوم ومارايك بادائها وعملها كسياسية وما صلة القرابة بينكما حدثينا قليلا عن والدتها وتأثيرها على شخصية ميسون؟